من النّظم التأريخي

إذا كان نقّاد الأدب قد قالوا إن الشعر العربي هو صحيفة العرب الراصدة لأحداثهم ، المعبرة عن مجريات أمورهم ..

فإننا في الجزيرة هنا نلمس كثيرًا من ذلك فيما رصد من أشعار عربية وعامية ..

ـ فالشيخ ابن غنام (... ـ ١٢٢٥ هـ) قد رصد لنا في تاريخه أشياء تسجل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود رحمهما الله ..

ـ ويعتبر ما ذكره ابن بشر (١٢١٠ ـ ١٢٩٠ هـ) من أشعار ، وأبيات متقطعة شواهد تنبئ عن تسجيل تاريخي لأحداث بعينها ..

أرجوزة أحمد بن علي بن دعيج

د./محمد بن سعد الشويعر

ذلك أن الشعر أسهل في الحفظ ، وأمكن في الإثبات ، في مجتمع يعتمد على الذاكرة والحفظ ، أكثر من اعتماده على التدوين والرصد .

ـ أحمد بن مشرف (... ـ ١٢٨٥ هـ) الذي رصد أحداث الدولة السعودية الثانية .

ـ والشيخ سليمان بن سحمان (١٢٦٦ ـ ١٣٤٩ هـ) الذي لقبه بعضهم بحسّان الدعوة ، يصح أن نعتبر شعره مرجعًا مهمًّا في تفاصيل سيرة الملك عبد العزيز .. لأنه يتحدث عن كل مناسبة في حينها .. ومثله في ذلك الشاعر محمد بن عثيمين (... ـ ١٣٦٣ هـ) في قصائده الحديثة .

ـ ثم الشيخ محمد بن بليهد (١٣٢٠ ـ ١٣٧٧ هـ) في ديوانه الشعري ..

ولقد لفت نظري أثناء بحثي في تاريخ شقراء قصيدتان ، فيهما إضافات تاريخية لم تدونها كتب التاريخ التي رصدت تلك الأحداث ..

ذلك أن الشعر لم تكن سمة الإطالة .. وإنما المحلل للأحداث هو الذي يجمع المعلومات التي أنبأت عنها الإشارة من الشاعر .

هاتان القصيدتان هما :

ـ منظومة الشيخ أحمد بن علي بن دعيج التي سرد بها الأحداث التاريخية إبان حملة إبراهيم باشا (١٢٠٤ ـ ١٢٦٤ هـ) على نجد وهدمه الدرعية عام ١٢٣٣ هـ وبعد القضاء على الدولة السعودية الأولى ، وبعثه بالإمام عبد الله بن سعود (... ـ ١٢٣٤ هـ) إلى مصر ثم الآستانة بتركيا .

ـ وقصيدة سليمان بن سحمان الرائية ، التي أوضح فيها الخطوات الأولى في انتصارات الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل (١٢٩٧ ـ ١٣٧٣) في العامين الأولين من مبدأ مسيرته ..

وفي هذا اليوم سيكون حديثنا عن المنظومة الأولى .. ولن نتعرض لمقارنة ما جاء بها من أحداث تاريخية ، بما رصد في كتب التاريخ .. وهذا ما سوف نفرد له بإذن الله مجالاً آخر ..

في هذه الحلقة سنحرص على إبانة الخطوات التي أوصلتنا إلى هذه القصيدة ، والتي لم تنشر حتى الآن ..

لقد لفت نظري حيالها الشيخ عبد الله بن جماز ، وهو من المعمرين ـ أطال الله في عمره ـ حيث قال عن نفسه بأنه ولد عام ١٣٠٧ هـ .. وقال بأن الشاعر تعرّض فيها إلى حرب شقراء مع إبراهيم باشا بأكثر من عشرة أبيات..

كما أنه يتوقّع بأنها تجيء في ١٥٠ بيتًا أو تزيد ، وأنه كان يحفظها منذ أكثر من سبعين سنة .. وقد أملاني من ذاكرته تسعة وأربعين بيتًا ..

لقد رجعت إلى ترجمة القائل عند الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن بسام ، في كتابه من علماء نجد في ستة قرون ، فرأيته يقول عن هذه القصيدة بعد إيراد أبيات منها : وهو رجز طويل سجل فيه بعض أخبار هذه الحادثة الكبرى عن عيان ومشاهدة ، وهو رجز لا يخلو من الخلل في وزنه ونحوه(١) .

ثم لما تتبعت التراجم التي أوردها الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن بسام في كتابه هذا والتي هي مظنة إيراد بعض أبيات من القصيدة .. وجدت :

١ ـ في ترجمة الشيخ أحمد بن دعيج المشار إليها ، قد أورد من هذه القصيدة : تسعة وعشرين بيتاً(٢) .

٢ ـ في ترجمة حياة الشيخ قرناس بن عبد الرحمن (١١٩٠ ـ ١٢٦٢ هـ) أورد بيتين(٣) .

٣ ـ في ترجمة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الحصين (١١٥٤ ـ ١٢٣٧ هـ) أورد سبعة أبيات (٤) .

ـ ثم عدت لكتاب روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين ، فرأيت مؤلفه الشيخ محمد بن عثمان القاضي قد أورد في ترجمة سيرة الشيخ أحمد بن علي بن دعيج ثمانية أبيات من هذه القصيدة مستقيمة الوزن والنطق(٥) .

ـ لقد اتصلت ببعض المهتمين علميًا من أسرة الشيخ مستوضحًا عن هذه الأرجوزة ، لعل

حلقاتها تتصل ، وما نقص منها يكتمل ، فلم نظفر بما أمّلنا ، ولم نجد ما يروي الغليل خاصة وأن مثل الشيخ أحمد الدعيج له شهرة في قصائد أخرى:

ـ فقد ذكر له الشيخ ابن بسام نظمًا سماه : كتاب العقد الثمين ، عقيدة الموحدين .. يوضح الاعتقاد الذي عليه أهل نجد .. ومطلع ذلك النظم:

باسمه أبد كل أمري تبركًا وحفظًا له لا يعتريه جذامها(٦)

ـ وذكر له الشيخ عبد الرحمن بن زيد العنزي قصائد في الإمام فيصل بن تركي يصفه بالعفة والصلاح بدأه بقوله :

وما بدأت النظم إلا محبة وما مقصودي به التنولا(٧)

ومحنة الدرعية لم تحرك الشاعر ابن دعيج وحده ، بل حركت غيره كثيرين فالشيخ علي بن الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفي عام ١٢٥٧ هـ له قصيدة لامية مؤثرة في رثاء الدرعية ..

وأهمية قصيدة ـ أو منظومة ـ ابن دعيج أنها طويلة ولم تنشر ، وتسجل أحداثًا تاريخية مهمة ، وأتوقع أن وجودها كاملة سينتج عنه :

- تصحيح كل خلل في الوزن واللغة .
- إضافة شيء جديد في السرد التاريخي ..

ومن هنا جاءت الرغبة في البحث عسى أن نصل لنتيجة مرضية .. ولما كان الشيخ عبد الله ابن جماز قد أكدّ لي أنه حفظ جزءًا كبيرًا منها هو والشيخ محمد بن علي البيز (١٣١٠ ـ ١٣٩٢ هـ) منذ أكثر من سبعين عامًا ، عندما كانا يطلبان العلم في حلقة الشيخ ناصر بن سعود ابن عيسى (١٢٨٥ ـ ١٣٥٠ هـ) في جامع شقراء .. وأن الشيخ محمد البيز يحتفظ بها مكتوبة ضمن محتويات مكتبته .

فقد اتصلت بمن آلت إليهم بعض محتويات مكتبة الشيخ البيز ، لكن لم نهتد إلى شيء يعطي أملاً في العثور ، علاوة على طرقي كل باب أظن فيه مدخلاً لمطلبي فانسدت السبل .

حتى كان لي حديث مع معالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ وزير التعليم العالي ذلك الرجل الذي حباه الله دماثة خلق ، وسعة أفق ، وحبًّا في البحث والمساعدة ففتح لي صدره وبسط جاهه ، وقال : من تظن نجدها عنده .. فقلت لا أتوقع غير فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام عضو هيئة التمييز بمكة المكرمة للأسباب التالية :

١ ـ اهتمام فضيلته بمثل هذه الأشياء ، وبكتب التأريخ التي تبحث في تأريخ الجزيرة إذْ نسمع أن لديه أشياء لم تر النور بعد ، ومجتمعنا في حاجة إلى إماطة اللثام عنها ليستفيد منها الدارس والباحث .

٢ ـ أنه ذكر بعض أبياتها في ترجمة حياة الناظم ، وقال عن هذه القصيدة بأنها رجز طويل يخلو من خلل في وزنه ونحوه .

٣ ـ أن بيد الشيخ محمد البيز رحمه الله ، والشيخ عبد الله بن بسام صداقة حميمة ، وعلاقة متينة .. والروايات تثبت اهتمام الشيخ محمد البيز بهذه القصيدة التي كانت مكتوبة عنده منذ كان شابًا يافعًا ..

تجاوب معالي الشيخ حسن جزاه الله خيرًا فكتب للشيخ عبد الله البسام طالبًا هذه القصيدة .. فبعث إليه بصورة عنها .. أرسلها إليَّ معالي الشيخ حسن بخطاب ينم عن حب للمعرفة .. وتشجيع للعلم ، وبذل للجاه والنفس في سبيله ..

صفات هي من أخلاق العلماء التي يجب أن نسجلها عرفانًا بالجميل ، وإشادة بفضل المحسن لإحسانه ، والمتواضع لتواضعه ..

وقبل أن أورد ما وصل إلى علمي من هذه القصيدة نقلاً عن الشيخ عبد الله بن بسام فإنني سألفت النظر إلي :

١ ـ قد يساورني الشك من الخلل في الوزن والنحو رغم أن ما نثبته هنا يؤكد ما أشار إليه الشيخ عبد الله بن بسام .. لان :

ـ الشيخ أحمد بن دعيج كان من جامعة الدرعية ، ومدرسة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وأبناء هذه المدرسة لهم اهتمام كبير بعلمي النحو والأوزان الشعرية ـ اللغة العربية عمومًا

وعلومها .

ذلك أن الشيخ أحمد بن علي بن دعيج قد ولد بمرات عام ١١٩٠ هـ .. وكانت فترة تحصيله العلم هي الفترة الذهبية في العلم وطلبه في نجد عمومًا وفي الدرعية بصفة خاصة .. ولاّه الإمام عبد الله بن سعود قضاء مرات بعد قتل قاضيها إبراهيم بن مشرف عام ١٢٣٢ هـ أي قبل نكبة الدرعية بعام ..

وقد استمر في هذا المنصب للإمامين تركي بن عبد الله (... ـ ١٢٤٩ هـ) ، وفيصل بن تركي (... ـ ١٢٨٢ هـ) ، حتى توفى في بلدة مرات وهو على رأس عمله عام ١٢٦٨ هـ .

ـ لعل هذا الخلل جاء من النقلة .. خاصة وأنني لمست اختلافًا بسيطًا فيما نقلته بالرواية عن الشيخ عبد الله بن جماز ، وما وجدته بالكتابة في النسخة المرسلة من الشيخ عبد الله البسام وأن بعض الأبيات يقوّمها حذف حرف أو اثباته ، أو تعديل في النطق والحركة .

ـ إن ذكر هذه الأرجوزة مع ما فيها من خلل سيلفت النظر ، ويحرك من يملك ولو بعضها بالتصحيح : تغييرًا أو إضافة ، أو استدراكًا .. وبذلك يتحصل الباحث على ما يعنيه ، ويجد القارئ فائدة مضافة ..

وهذا أيضًا مما يهم الشيخ عبد الله البسام كما يهمّ غيره ..

٢ ـ لا أحد ينكر ما قدّمه الشيخ عبد الله بن بسام في كتابه : علماء نجد في ستة قرون من فائدة جديدة للقارئ ـ وأنا واحد ممن يدين له بذلك .

ولكن لماكان الشيخ هاويًا ومحبًا للتأريخ والبحث ، بحيث وقع تحت يده ما لم يقع تحت يد غيره .. ألا يجدر به ـ جزاه الله خيرًا ـ أن يتحف المكتبة المحلية بذلك نشرًا أو تحقيقًا ..

وإن من ضمن ما طرق سمعي عن الكتب المخطوطة التي يملكها الشيخ عبد الله ، ولم تتيسر للقارئ المطلع ، ولا للراغب منهم ، الكتب التالية :

(أ) تاريخ الشيخ أحمد بن محمد بن بسام .. ويقع في عشرين صفحة ، من عام ١٠١٥ هـ إلى عام ١٠٣٩ هـ .

(ب) تحفة المشتاق ، في أخبار نجد والحجاز والعراق للشيخ عبد الله بن محمد البسام المتوفي عام ١٣٤٦ هـ .
(جـ) تأريخ ابن لعبون ، الذي طبع ناقصًا عام ١٣٥٧ هـ .
(د) تأريخ ابن عنبّق .

٣ ـ إن ما نورده هنا من هذه الأرجوزة لا يمكن إطلاقه بأنه هو القصيدة كاملة .. إذْ اتوقع أن بالقصيدة نقص لم يستكمل ، وكقرينة على ذلك ، ما وجدته من زيادة بين المصدرين مما يجعل الباب مفتوحًا للإضافة لمن تتوفر لديه .

وإن من أسباب نشر هذا الموضوع هو استكمال هذه الأرجوزة وما دام حولها .
٤ ـ إن الشيخ أحمد بن دعيج عندما بدأت حملة إبراهيم باشا على نجد كان في منصب مهم وهو القضاء في بلدة مرات .. ثم عاصر الأحداث خطوة فخطوة .. فهو لا يسجل إلا ما وصل إلى علمه بأنه حقيقة لا لبس فيها ولا مراء ..

فهو بحكم مركزه وعلمه في موطن العدالة والإثبات ..

وبلدة مرات أقرب إلى مراقبة مسيرة جيوش إبراهيم باشا لأنها تكاد تكون في طريق مسيرة هذه الجيوش بعدما خرجت من شقراء إلى الدرعية مارة بضرماء . لكنه لم يذكر معركة ضرماء وهي قريبة منه مع انها تهز المشاعر .. ولا أتوقع أنه سيغفلها مع علاقتها بالحملة ضمن هدفه .

٥ ـ ثم إن الشيخ ابن دعيج أيضًا عنده اهتمام بالتاريخ ورغبة في تسجيل حوادثه ، يتضح مثل هذا في المقدمة التي وضعها بين يدي القصيدة ، معبرة عما يكنه ويأمله ، وبما لديه من تذوّق ، ورغبة في إيضاح الأحداث لمن يأتي بعد ..

ولموهبته الشعرية أَحَبَّ رصد ذلك شعرًا .

مقدمة الناظم :

وضع ابن دعيج لأرجوزته تلك مقدمة تفصح عن رأيه ، ونسبه .. وهذه عادة درج عليها العلماء قبله في بعض الحالات .. ولا نستطيع أن نجزم عما إذا كانت هذه المقدمة مع الأرجوزة

بخط يده أم لغيره .. لعدم وجود ما يثبت ذلك .. ولكن الأرجح أنها بخطوط متداولة بعده بزمن .

لأن من عادة ما يأتي بخط قائله التوثيق بما يدل على ذلك ، ووضع التأريخ لليوم الذي كتبت فيه .. خاصة مثل الشيخ ابن دعيج الذي كان يزاول القضاء في بلده مرات ، وعادة القضاة التوثيق باسم الكاتب . والزمن الذي كتبت فيه ..

وهذا هو نص مقدمته :

أقول أنا الفقير إلى الله أحمد بن علي بن أحمد بن سليمان بن دعيج رحمهم الله تعالى ، الحنبلي مذهبًا . الكثيري نسبًا . المرائى ـ بفتح الميم ـ بلدًا : من كتب أخبار عصره فقد أشهد عصره ، من لم يكن من أهل عصره ، وقصص الأولين مواعظ الآخرين وقد امتن الله على رسوله محمد ﷺ ، حيث قال جل من قائل : «وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك»(٨) .

فمن كتب ما رأى أو سمع من أخبار الأمم الماضية ، لمن بعده ، فقد أهدى إليهم ما ليس عندهم ، فلعل من يأتي في آخر الزمان يصيبه بلاء ، فيظن أنه أول مبتلي ، فإذا سمع التواريخ وما جرى على من سبق سكن روعه ، واطمأن قلبه ، كما قيل :

طالع تواريخ من في الدهر قد وجد   تجدْ هموًما تسلّى عندما تجدُ
تجد أكابرهم قد جرعوا غصصًا   من الرزايا بها كم فتتْ كبدُ

وأقول جزى الله بالخيرات من كان قبلنا ، لقد غرسوا حتى أكلنا ، وإننا لنغرس حتى يأكل الناس بعدنا .

فاستخرت الله تعالى ، على ذكر الواقعة الكبرى التي قصمت الظهور ، وفصمت العرى ، وفرّقت البوادي وأهل القرى ، وهي ممشى إبراهيم باشا بن محمد علي وزير مصر ، على نجد سنه ثلاث وثلاثين ومائتين والف «١٢٣٣ هـ» ، وهدمه أسوارها بالجملة ، وهدم الدرعية ، وقطع نخيلها ، وتسفيره آل سعود ، وآل الشيخ إلى مصر ، وتركنا ذكر ما سواها من وقايع بنجد ، وصلى الله على محمد وسلم . انتهى .

بعد هذه المقدمة جاءت القصيدة التي نوردها فيما يلي مراعين إثبات ما توفر من زيادة عن نص الشيخ عبد الله البسام ، أو الإختلاف في الرواية .. من باب أمانة النقل:

الحمد لله على ما أنعما   حمدًا به يجلو من القلب العمى
ثم الصلاة بعد والسلام   على نبيّ دينه الإسلام(٩)
يقول عبد أصله من ماءِ   الحنبلي المذهب المرائي
بفتح ميم أصح لا تضمها   فضمها يا صاح غاية ذمّها(١٠)
دخيل مولاه الفقير أحمدا   أمّل يهديه طريق محمدا
واسمح له مساويًا نساها   عتيد في كتابه أحصاها
بالجود والعفو وبالغفران   مع الرضا والفوز بالجنان
ووالديه وسامع مؤمنا   ومن سعى في نفعنا داعٍ لنا
أول ما أبدأ به المباني   باسم ذي المواهب المنانِ
والحمد فهو الله مستحقّهْ   حمدًا كثيرًا عنه يعجز خلقه
مستغرقًا للحمد والمحامِدِ   جميعها وهو عليها زائد
نحَمدْ معبودنا والرب   سبحانه فهو لنا مرب
ثم الصلاة والسلام بالوفي   على النبي العربي المصطفى
محمد المختار سيد البشر   مال له الإيوان وانشق القمر
وآله وصحبه كلاهما   وتابع يتبع ومن والاهما
ما هلّت السحب من الأمطار   وسجعت ألحانها الأطيار
وبعد ذا ذكر وقايع عصرنا   لطالب يسأل ويأتي بعدنا
لعله يدعولنا بالمغفرة   والفوز أخرى مع وجوه مسفره
فلعل من يلحق يصبه بلاء   فيظن أن الغرّ أول مبتلاء(١١)
فيسمع التأريخ أو يطالع   فيرى الحوادث فيه والقوارع(١٢)
على الأوائل والأواخِرْ قد جرتْ   من بعد آدم كل شيء أتبعتْ
فيسكن لذلك روعه ويطمئن   وساخط المقدور بالقلوب فمن
مطالع التأريخ صاعد سلمن   يشرف على ما قد جرى فيعلمن(١٣)

وهذا جيل تظهر العجائب   وتملأ الاوس بالغرائب
فاسمع وخذ تاريخ قرن ثالث   وما جرى فيه من الحوادث
منه ثلاث مع ثلاثين مضت   من قرننا المذكور والبلوى دهت(١٤)
من بعد الف قد مضى وقد جرى   من هجرة شرّفها خير الورى
بنجد أذكر ما جرى تجميلاً   وأترك التبعيض والتفصيلا
ومغفلاً يا صاح للصغيرة   وواسمًا للمحنة الكبيرة
وهي العساكر مع وزير مصرا   أضرم على نجد بنار حمرا(١٥)
وقبله كأنها عروسا   والخير ذكره يملأ الطروبا(١٦)
أميرها السميدع المحامي   بنفسه عن حوزة الإسلام(١٧)
عبد العزيز أمير أول عصرنا   فضائله تزكو نعتنا(١٨)
يسوس بالقرآن والآثار   ونهجه طريقة المختار(١٩)
من بعده قام ابنه سعود   وعقد الرايات والبنود(٢٠)
وأحسن السيرة والسلوكا   وأرهبت موهبته الملوكا
في عصره ترعى الضعيفة وحدها   والثعلب أدرك حقه من فهدها
وعمت الراعي مع الرعيّة   هثيم والأشراف بالسويّة(٢١)
وجنّد الجنود للجهادِ   ودوّخ الحضار والبوادي
في عصرهم أيامهم بواسم   هبائب العز لهم نواسم
ونعمة الإسلام ذاك الوقت   كل رآها غير أهل المقت
وبعدهم قام الإمام البارع   وكم له في الترك من وقائع
عبد الإله الليث أبو سعد   ولد سعود الندب مثل الفهد
في نحره قام أفندم باشا   وفوّق السهم له وراشا
بعساكر السلطان ومحمد علي   وكم قبله الوادي يطم على القرى
أتى بكيد ما رأينا مثله   واجْلبْ علينا خيله ورجله
وشاب نار الحرب فوق الرس   ثلث السنه يضربهم بالقبس
وصبروا وصبرهم قد بانا   أصبر في الهيجاء من أبانا
رجال صدق في اللقا والبأس   أعيانهم وشيخهم فرناس(٢٢)

ساورهم فغدينا بكل فن   نعم بأهل الرس وطوه الرس
وعلى عنيزة مع بريدة حلاً   فراعهم منه سواد الظلاّ
ومالت أرياهم وضاق المخرجا   والذل في قلوبهم تولجا
وابتهجوا بالصلح والأمان   وهم رجال الحرب والطعان
وشقراء عليها شب نار الحرب   بالقبس ضربًا رجم الشهب
نهارهم يشبه مهب عاصف   وليلهم بالوصف رعد قاصف(٢٣)
في ليلة ثلثمائة مدفع   صوت القبوس مفزع وموجع(٢٤)
ثلاثة أيام عليهم طالت   وأفزعت قلوبهم وهالت
بلادهم بالسور قد أحيطت   وبالحصون المحكمة أشيدت(٢٥)
وخندق دوّار للبلاد لمَّتْ   فزادت المصائب وعمت(٢٦)
وفنيت الأسباب والأسوار   ولم يبق إلا خندق دوّار
والتفت الأتراك والشباك   وأيقنوا بالعطب والهلاك(٢٧)
وحوّمت عليهم المنيّة   وأنجاهم الباري بصدق نيّة
ودار رحى الحرب على الحمادة   وخصهم مولاي بالشهادة
نرجو لهم من ربنا غفرانًا   لصبرهم والفوز بالجنانا
وباقي القرى تسابقوا وقابلوا   وأعرابهم فارحلوا وعاملوا
أفٍ لهم خافوا علوج الدوي   والصبر من نفوسهم معدوي
ونازل العوجا بحرب صارم   لكن تطنطن دونها الأراقم(٢٨)
حاصرهم بالروم سبعة أشهر   أبو سعد سكاّنها والأنجر(٢٩)
أبوابها جدّه مع اجتهاده   لكن مولانا له مراده
بضربة القلوب منهم بالوهن   حاشا مشاهير وفيصل ماجن
وبعض على الباشا فهم تهافتوا   وآخرين بالمكاتب خافتوا(٣٠)
وأهل السهل جميعهم فاهلسوا   وأدخلوا العسكر عليه دلّسوا
والنصف من أهل الطريف ناروا   وصفقوا جناحهم وطاروا(٣١)
وخلفوه بقصره وحيدا   وقضى الإله فليس عنه محيدا(٣٢)
واخرجوه من منيع أوطانه   فعزّ من لا ينقضي سلطانه(٣٣)

ولا يرام ولا يكيده كائد   ولا يبيد وكل شيء بائد
مالك جميع الملك حي دائم   سواه مملوك وأنفه راغم
وملكه جديد ثابت الأركان   ولا يضام ولا له أعوان
كم قبلنا أباد ربي من أمم   من بعد نوح مثل عاد أو أرم
فما مضى كم دولة قد دالتْ   ثم انقضت مدتها وزالتْ
كم في المقابر من أشم المعطسا   رماه سهم حادث فقرطسا
سكان نجد في حساب الناس   كقطرة في البحر بالقياس
مصير دنيانا إلى المحاق   ثم البقا للواحد الخلاّق
وذا يعزينا عن آل سعود   وعن كل محبوب لنا مفقود(٣٤)
وبعدهم أهل الظنون الفاسدة   تيقنوا النعمة عليهم خالدة(٣٥)
فانقلبت أيامهم دواهي   وبُدِّلَتْ دروسهم ملاهي
بيوتهم ملاعب للبوم   يُسْمَعْ بها صوت الصدا الموهومِ
فيا لها من بيضة تَفلَّقتْ   حدائق بعد التفاف قطَعَتْ
وطالما كانت محل آنس   ورحب ساحات بها مجالس
وكم بها من ملك غطريف   وشيخ علم جهبذ ظريف
ومن نوى نزال الملك من رجالها   كل تبين ثم قال أنا لها
وسادنا منهم حسين مع حسن   وأتباعهم من نجد يابئس الزمن(٣٦)
توازروا بالقتل والمصادرة   الله يكفينا وجوه باسرة
والسبل فالأعراب قطعوها   بالختل والأموال نهبوها
فاضطربت أيامنا واختلَّتْ   سبع سنين سقمت واعتلَّتْ
وأظلمتْ نجد وثارتْ الفتن   واستنسر البعوض والثعلب فتن
فانتدب الشهم الموفق تركي   وجِرَّد الأجرب نظام الملكي(٣٧)
وأورد الأعدا بحار الهلكِ   وقطَّ من نجد قصور التركِ
ولاح بدر طالعًا في السعد   وكفّ شرًا واستقَرتْ نجد
فانصلحتْ به الأمور الفاسدة   وأرغم الله تعالى حاسده
واستنقذ الملّة والخلافة   وناف فعلاً عن فعال أسلافه

يارب توهن من نوى خلافه   تبقيه ذو عز لنا سنينا(٣٨)
....   باسا معًا للنظم قل آمينا
بدعى صدور النظم والقوافي   حُبًّا لأهل العدل والإنصاف
وليس مقصودي وليس شاني   أطلب به شيئًا من المعاني
فخير والٍ عادلاً بصيرًا   شبيه عمر ويحسن التدبيرا
يقدم الوجيه فيها عالمًا   وعن الرعية يرفع المظالما
وموفيًا للعهد والذمامِ   وحاميًا لحوزة الإسلام
يجهز الجيوش للمغازي   ويقمع أهل الشين والمخازي

وينصر المظلوم والحدودا   يقيمها ويكرم الوفودا
وينصب القضاة أهل العلم   منفذًا لقولهم في الحكم
مفتقدًا للضيف بالإكرام   وفي الحروب ماهر مقدامِ
يقرّب أهل الخير والأمانة   يجعلهم شعارهْ والبطانه

ويبعد أهل الشر من ناديه   ويقصهم لو كانوا من ذويه
ميزان أفعاله على هدى النبيَ   بخٍ له فذاك عنقا مغرب
والحمد حقًا أوله وآخره   لمالك الدنيا مليك الآخرة
معبودنا أهل الثنا والمجد   جزل العطايا مستحق الحمد

موجد جميع الخلق من بعد العدم   سبحانه وهو المربي بالنعم
وإن تعدوا النعم لا تحصوها   يا معشر العباد فاشكروها
فالحمد والشكر عليكم فرضًا   جزاؤه فهو عليه قرضًا
وتمت المباني الحربية   أبياتها غرائس مجلية

أعيذها من طعن شامخ بأنفه   وهو الغبيّ والجهالة وصفه
عسى عليها الستر والقبول   بجاه طه السيد الرسول(٣٩)
الهاشمي المصطفى التهامي   وآله وصحبه والكرام
صلى عليهم ربنا وسلّما   ما دارت الأدوار أفلاك السما

واغفر لنا يارب وامنحنا الرضاء   وعافنا واكفنا سوء القضاء
والأهل والجيران والأقارب   والصحب حاضر أو غائب
أبياتها سبع حساب متقنًا   فلا تمل عنه هنا أو هاهنا

وعلى هذا فإنني أعتقد أن هذه الأرجوزة لا زال لها بقية ، سواء تخللت أبياتها لأن القارئ يحس في بعض أبياتها انقطاع في المعنى . .

أو في نهايتها للأسباب التالية :

١ ـ آخر بيت قوله : أبياتها سبع حساب متقنا .. فلابد أن يذكر ما فوق هذا الرقم إذ بلغ ما دون هنا منها ١٢٨ بيتًا فهن أبيات لم تكن في النص الخطي كما أشرنا .. ولعله يريد بسبع أن أبياتها سبعمائة بيت ولذا تعتبر تاريخًا متكاملاً .

٢ ـ إنني سمعت ممن يعرفها أو سمع عنها أنها أكثر من ١٥٠ بيتًا .

٣ ـ أن الناسخ كثير إضافة بعض الحروف التي تخلّ بالوزن والجري الشعري .

٤ ـ أن الراجز قصر الأحداث في أرجوزته على بداية عهد الإمام تركي بن عبد الله الذي اعتبره من عام ١٢٤٠ هـ .. حيث قال : سبع سنين سقمت واعتلّت» بينما ابن بشر يرى أن خروجه في عرفه ، ومحاربته لأهل الرياض ، ثم استيلاءه على ضرماء كان في عام١٢٣٩ هـ .. أي بعد ست سنوات ..(٤٠) .

وتركي بعد أن استتب الأمر له في نجد أبقى الشيخ أحمد بن علي بن دعيج على قضاء بلده مرات حتى توفى الإمام تركي مقتولاً عام ١٢٤٩ هـ .

ثم أبقاه ابنه الإمام فيصل بن تركي إلى أن توفى وهو في قضاء بلده عام ١٢٦٨ هـ . وعلى هذا يكون قد بقي في الأحداث التاريخية المليئة بما يروي النهم ، ويسد حاجة الراغب في التدوين «٢٨» عامًا .. ما كان الراجز ليغفل عنها أو يتناساها وإن ترك آخرها باعتباره قال القصيدة قبل تقدم السن به فما كان ليترك هذه المدة الطويلة .

٥ ـ أميل إلى أن هذه الأرجوزة قيلت في فترات متقطعة ، بمعنى أن القائل لم ينهها في جلسة واحدة .. ولذا فإن هناك أحداث قريبة منه ما كانت لتند عنه :

ـ مثل إقامة خورشيد باشا في ثرمداء .. والضرائب التي كان يفرضها على أهالي الوشم خاصة وقرى ومدن نجد عامة .

ـ المظالم التي كانوا يقومون بها وإهانتهم بل قتلهم العلماء والناس .

ـ دعوة حسين بك لأهل الدرعية : من أراد بلدًا ينزلها فليأتنا نكتب له كتابا يرحل إليها .. فلما حضروا عنده وعددهم نحو (٢٣٠) رجلاً بنسائهم وأطفالهم قتلهم جميعًا بسنابك الخيل في ثرمداء(٤١) .

مثل هذه الأشياء التي تحرك المشاعر لا أتوقع أن الشيخ ابن دعيج سيغفلها من أرجوزته هذه التي وسمها في مقدمته بأنها ذات عبرة وعظة : فلعل من يأتي بعدنا في آخر الزمان يصيبه بلاء ، فيظن أنه أول مبتلي ..

أما قوله في المقدمة : وتركنا ذكر سواها من الوقايع بنجد .. فهذا يرد عليه ما جاء بعد البيت ٨٧ حيث استمر في سرد الحالة في نجد وحسن وحسين وهم من القواد الأتراك الذين مر ذكرهم عند ابن بشر ..

وذكر خروج الإمام تركي ، وعن السبع سنين التي ماجت فيها نجد وانحلت فيها العرى وهي الفترة الزمنية بين تركي واستقراره ... وبين هدم الدرعية عام١٢٣٣ هـ . كل ذلك يقوي العزم بأن للأرجوزة بقايا نأمل أن نراها لنسير مع أحداثها مع رجل عاصر تلك الأحداث وعاشها ساعة بساعة .

أما استطراده فهذا بالدعاء من تأثير العقيدة الدينية ، وانعكاس للخلفية العلمية ، والنظرة الاجتماعية ..

وهذه سمة يلمسها كل من يقرأ نظمًا لعلماء نجد إلى عهد قريب ، ذلك أن القضاء يضفي على أصحابه مهابة ووقارًا ..

والاستطراد عنده ليس علامة النهاية فقد استطرد في هذه القصيدة أكثر من مرة ثم يرجع لموضوعه ..

ولعل مما يؤيد حدس ما ذهبنا إليه أن الأبيات التي أورد الشيخ **محمد بن عثمان القاضي** مع قلتها .. فهي أصح وزناً ولغة من الأبيات نفسها كما جاءت هنا ..

وسأورد تلك الثمانية التي جاءت ضمن ترجمة حياة الشيخ أحمد بن دعيج ، رغم أنها غير منتظمة في التسلسل مع الأصل الذي أوردناه ..

وهدفنا هنا حثّ القارئ للمشاركة فيما لديه من هذه الأرجوزه ليكتمل عقدها .. أورد محمد القاضي هذه الأبيات منها :

فاسمع وخذ تاريخ قرن ثالث   من بعد ألف نكبة الحوادث
نتلو ثلاث مع ثلاثين مضت   أتت على نجد بنارٍ أوقدت
وقبله كأنها عروس   والخير في أركانها يميس
أميرها السميدع المحامي   بنفسه عن خدمة الإسلام
كم قبلها أباد ربي من أمم   من بعد نوح مثل عاد وإرم
مصير دنيانا إلى المحاق   ثم البقا للواحد الخلاّق
فيالها من بيضة تفلّقتْ   حدائق بعد التفاف قطّعتْ
وطالما كانت محل أنس   ورحب ساحات لهمٌ تنسى(٤٢)

الهوامش

(١) راجع ترجمته في الجزء الأول من ص ١٧٧ ـ ص ١٧٩ .

(٢) انظر المرجع السابق : ١٧٧ ـ ١٧٩ .

(٣) انظر المرجع السابق ٣ : ٧٦٧ .

(٤) انظر المرجع السابق ٢ : ٤٨٠ .

(٥) انظر هذا الكتاب جـ ١ ص ٦٧ .

(٦) انظر علماء نجد ١ : ١٧٩ .

(٧) انظر الكتاب المنتخب في ذكر قبائل العرب ص ١٠٣ .

(٨) سورة هود آية ١٢٠ .

(٩) هذان البيتان زيادة عن النص رواية عن الشيخ عبد الله بن جماز .

(١٠) رواية الشيخ ابن جماز «غاية ذلّها» .

(١١) لعل الأقرب إلى الوزن :

لعل من يلحق يصيبه البلاء   يظن أن الغرّ أول مبتلاء

(١٢) لعل الأقرب إلى الوزن .... فيدرك الحوادثْ منه والقوارع

(١٣) سلمن خطأ في النطق وإنما جاءت منوّنه من أجل القافية .

(١٤) هذا البيت زيادة عن النص في رواية الشيخ عبد الله بن جماز ، وموقعه عند ابن بسام بعد ثلاثة أبيات .

(١٥) في رواية البسام التي أثبتها في ترجمة حياة الشيخ ابن دعيج قال : «أتت على نجد بنار حمراء» جـ ١ ، ص ١ : ١٧٨ .

(١٦) في رواية البسام أيضًا في ترجمة ابن دعيج قال : كأنها عروس ، والخير في أركانها يميس» ١ : ١٧٨ .

(١٧) رواية ابن بسام في ترجمة ابن دعيج قال : «بنفسه عن خدمة الإسلام» نفس المصدر .

(١٨) رواية ابن بسام في ترجمة ابن دعيج قال : «وفضله يزكو تعبير ثقتنا» نفس المصدر .

(١٩) رواية ابن بسام في ترجمة ابن دعيج قال : «يفوز بالقرآن» نفس المصدر .

(٢٠) رواية الشيخ ابن جماز «وأحكم الرايات والبنود» .

(٢١) هذا البيت والذي قبله من رواية الشيخ ابن جماز في هذا الموضع وفي النص بعد ثلاثة أبيات مع تقديم الثاني على الأول ورواية الأول «سارت به الأنثى الضعيفة وحدها» .

(٢٢) رواية الشيخ ابن جماز «نعم بأهل الرس بين الناس   أميرهم وشيخهم قرناس» .

(٢٣) رواية الشيخ ابن جماز :

نهارهم يشبه هب العاصف   والليل بالوصف كرعد قاصف

(٢٤) هذا البيت زيادة عن النص في رواية الشيخ ابن جماز .

(٢٥) ، (٢٦) هذان البيتان زيادة عن النص في رواية الشيخ ابن جماز .

(٢٧) رواية الشيخ ابن جماز :

وفنيت الأشراك والشباك   وأيقنوا بالعطب والهلاك

(٢٨) رواية الشيخ ابن جماز : لكن نظن دونها الأراقم ، والشيخ ابن بسام في ١ : ١٧٨ لكن نقبض دونها الأراقم .

(٢٩) رواية الشيخ ابن جماز : أبو سعد أسيرها والأنجر . والشيخ ابن بسام في ١ : ١٧٨ : حاصرها بالدوم .

(٣٠) رواية الشيخ أبن جماز :

منهم أناس على الباشا تهافتوا   وآخرون بالمكاتب خافتوا

(٣١) في رواية ابن بسام : ١ : ١٧٨ : والنصف من أهل الطريق ثاروا .

(٣٢) رواية الشيخ ابن جماز :

وخلفوا بقصره وحيدا   قضى الإله لبس دونه محيدا

ورواية الشيخ ابن بسام ١ : ١٧٨ :

....   وقضى الإله ليس عنه محيدا

(٣٣) رواية الشيخ ابن جماز :

وأخرجوه من منيع داره   ....

(٣٤) رواية الشيخ ابن بسام ١ : ١٧٨ .

وذا يقبنا عن آل سعود   ومن كل محبوب لنا مفقود

(٣٥) رواية الشيخ ابن بسام ١ : ١٧٩ :

....   تيبقوا النقمة عليهم خالدة

(٣٦) هذا البيت وما بعده يحكي من جاء بعد إبراهيم باشا وما وحل في نجد من الفوضى .. ويبدو أن بينه وما قبله انقطاع قد يكون جزءا من الأرجوزه لم يصل إلينا . وحسين وحسن من قادتهم .

(٣٧) الأجرب اسم سيف الإمام تركي بن عبد الله .

(٣٨) يلاحظ القارئ اختلاف القافية هنا مما يدل على سقوط الشطر الثاني .. وإن هذا الشطر هو أول البيت الذي يليه .

(٣٩) استبعد هذا منه لمخالفته صراحة التوحيد ولأنه ممن ألف في العقيدة منظومة أشرنا إليها .

(٤٠) راجع عنوان المجد لابن بشر جـ٢ ص ٢٥٢ ، وفي ص ٢٥١ قال إنه خرج من الحلوة عام ١٢٣٨ هـ .

(٤١) راجع عن هذه الحكاية عنوان المجد لابن بشر أحداث عام ١٢٣٦ هـ جـ١ ص ٢٢٣ .

(٤٢) انظر روضة الناظرين ١ : ٦٧ .